المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثاني - ١٣٩٩ - ١٩٧٩

2

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

قصر الأخيضر

للمستشرق البريطاني

ك. آ. سي. كريزويل

ترجمة

نافع محمد يحيى الزاوي

بغداد ـ الجمهورية العراقية

مقدمة المترجم

ان المتتبع للتأريخ العربي يرى أن العرب كانوامنذ القدم أصحاب حضارة حيّرت عقول الباحثين والمؤرخين من مشارق الأرض ومغاربها ...فقد كان العربي فنانا مبدعا ومعمارا منشئا ومقاتلا موجعا وعطوفا ذا رحمة وشفقة حتى علىاعدائه ... وبمرور الزمن أخذ يخطو أشواطا بعيدة ؛ فقد فتح الأمصار ومصرّها وبنى القصوروزيّنها والاراضي البور فعمرها ... وصنّع الصناعة وعمل ما عمل حتى إننا لنراه يطمع بأكثرمن هذا كله فيعمل لنفسه اجنحة فيطير فيها كما يطير الطير ، ونراه يستخلص من الأعشاب أدويةيطبب بها ويتطبب ... وعلى هذا الأساس فالمتتبع للآثار العربية يرى وعن جدارة واستحقاق ماوصل اليه الفن المعماري في عصور الحضارة ، ولا أدل على ذلك من المساجد والقصور والمدارس والقلاع والمآذن التي لا زالت تطاول الزمن وتتحدى حوادثه وأعاصيره فبقيت حتى يومناهذا تدهش الرائي وتبعث المتتبع الى البحث عن سر هؤلاء الأعراب أصحاب هذه الحضارةالعريقة .

ومثال على ذلك موقع أثري عجيب في بنائه ... عجيب في موقعه ... عجيب في سره الذي مات مع صاحبه وزال بزوال العصر الذي تم فيه فبقيحديث المحدثين وموضوع الباحثين والمؤرخين، انه « قصر الاخيضر » مادة بحثنا هذا الذي أرجوأني وفقت في ترجمته بكل أمانة من كتاب « فن العمارة الاسلامية » للمستشرق البريطانيبرفسور ك. آ. سي. كريزديل ... وأريد أن

WWW.ATTAWEEL.COM

أبين للقارىء الكريم والمتخصص في هذا الموضوع اني حاولت مع الترجمة زيارة هذا الموقع الأثري فتابعت جميع أقسام البنـاء مع كل ما جاء على لسان المؤلف كما واني رجعت الى كل المصـادر العربية التي اعتمد عليها المؤلف فوجـدت أنـه قد وقعت عنده سهوا بعض الاخطاء فعملت على توضيحها في هوامش خاصة مع ذكر اسماء جميع المصادر متوخيا تقديم البحث كما ينبغي ان يقدم لتتم الفائدة فيجد القارىء الكريم أمامه بحثا لم يقتصر على مجرد الوصف لدهاليز القصر وأروقته وأقواسه وأواوينه وعقوده بل مادة كاملـة من جميع الوجوه .

فالأخيضر ، الذي هو من تلك القصور أو القلاع التي يعتز بها التأريخ العربي لازال قائمـا يطاول الزمن ويتحدى جميع وسائل التعريـة ، أنشأ في ارض صحراوية بعيدة عن العمران كان الغاية منه على اكبر الظن حماية اطراف الدولـة من الغزاة الطامعين والخارجين على الحكم أيا كان نوعهم وصفتهم . فالاخيضر قد بُني على وادي الأبيّض الذي ربما كان فرعا من الفرات يستقيم فيه الماء طيلة أيام السنة والا لما جعلت الجهـة الشمالية لهذا القصر دون سور خارجي يحميها . فلو لم يكن هناك ماء دائم يحول بين الغزاة وبين اقتحام جهة القصر لما عجز القوم عن احاطة جهته الشمالية بالسور الخارجي كبقية الجهات . ثـم أن وجود القصر على مشارف الوادي ليدل دلالة واضحة على وجود الماء فيه دائما . اضف الى ذلك أن اتجاه الأبيّض في وضعه الحالي ينحدر الى هور أبي دبس الذي (على الأغلب) هـو شعبة لمجرى الفرات سابقا خاصة وأن المتتبـع لمجرى الفرات يعلم جيدا أنه ما من سنة تمر الا ويغير الفرات فيها مجراه . فكم من أرض شاسعة على يمين المجرى اصبحت على شماله والعكس جائز .

ولموقع الأخيضر أهمية كبيرة . فالبقعة التي شيد فيها تقع على طريق يربطها بالعالم الخارجي (دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ، ١٩٣٣) وانـه يوصل حلب بالبصـرة ويوصـل البحر الأبيض المتوسط بالبحر العربي عن طريق الشام . كمـا وانه يمتد في البادية الى مسافات بعيدة حتى إنه يتصل بوادي حوران مما يسهـل على القبائـل العيش عليه في وقت غير قليل من أشهر السنة . والى الشمال الغربي من هذا الحصن تقع شثاثة التي تجاور المدينة تأريخيا « عين التمر » والتي اليها ينسب بعض الباحثين هذا الحصن . وتبعد شثاثة عن الاخيضر ١٩ كم ويفصلهـا عن بعض وادي الأبيّض الذي تنسـاب فيه الامطـار الى هور ابي دبس . لهذا أصبح الاخيضر من المواقع الأثرية المهمة لأنه يربط جنوب العـراق بأعالي الفرات وسوريا . فالمسافر الى سورية من الكوفة يمر بهذا الموقع وعلى هذا الامتداد تقـع بعض الأبنية القديمة الاخرى مثل « عطشان » ـ الذي أشار اليه المؤلف ـ وقلعـة شعون وبرداويل وموجدة . ويؤكد الاستاذ كريزويل أن « خان عطشان » يشترك مع الأخيضر من ناحية تأريخ البناء . فيعتقد أنه بُني في نفس العام الذي بني فيه قصر الاخيضر ومن قبـل نفس الشخص . ولربما كان « عطشان » نقطة يرتاح فيها المسافر من الكوفة الى الأخيضر وكذلك عند الرجوع .

والمشكل هـو أن الأخيضـر بقي مغلفـابعلامات استفهام كبيرة ما دام غفـلا من الكتابـة فقد اختلف العلماء والباحثون والمؤرخـون فيتحديد تاريخ انشاء الأخيضر وتسميته والشخص الذي بناه فبات الأمر لديهم لغزا حيّر عقولهـموشغل بالهم سنين طوال • فقد حاولـوا بشتى الطرق العلمية الحديثة الكشف عن جنـية هذا البناء الأثري وتحديد اسم بانيـه وعصره تحديدا دقيقا فاحتدم الجدل فيما بينهم لأختلاف الآراءوكل ما قدّموه لا يتعدى في الوقت الحاضـر حدود التخمينات والفرضيات • فلم يكن لديهـمدليل قاطع يمكن أن يدلهـم على الشخصية التي بنت هذا القصر والعصر الذي تم فيه •

لقد زار هـذا الحصن الرّحالـة الايطاليبيترو دي لافاله Pietro della Valle في أوائل القرن السابع عشر (دائرة المعارف الاسلاميـةج ١ ، ص ٥٣٠ ، ١٩٣٣) وذهب الى رأي هو أن بدو الرولـة الذين جاوروا الموقـع كانـوايسمونه « اخيزر » لكنهم كانوا يفضلون تسميته بقصر الخفاجي • وقد حمل هذا الرحالة الى مثلهذا الاعتقاد اكتشاف بعض الكتابة على أحـد جدران الملحق للقصر ورَدَ فيها ذكر الخفاجي •

غير أن ماسينون Massignon الذي زارالقصر عام ١٩٠٨ (نفس المصدر) انتهى الى رأي هو أن الأخيضر ساساني بناه معمار ايراني لملكمن ملوك الحيرة من اللخميين • وقد اعتمد هذا الباحث على ما شاهده من تشابـه بين ريازتـهوالريازة الساسانية • ويعتقد أنه قصر السـدير الذي تغنى به الشعراء •

وذهبت المستشرقة البريطانية مس جريترودبل G. Bell التي زارت القصـر عـام ١٩٠٩ وفحصته فحصا دقيقا الى رأي هو أنه بناء اسلاميتم بنـاؤه في العصـر الاموي ، وقد عرفتـه المستشرقة بأنه موقـع دومـة الحيرة • ويؤيداسلاميـة وعروبـة هـذا البناء كل من موسيل Musil واوسـكار رويتر وهرتسفيلـدوكريزويل ، لكنهم أبعدوا كونه اموياً •

أما اوسكار رويتر فقد زار القصر عـام١٩١٠ و ١٩١٢ (نشرة الاخيضر ، مديرية الآثار ، ص ٣٥ ، بغداد ، ١٩٣٧) وقام خلالها بدراسـةعميقة ودقيقة عن المبنى ورسم مخططات مختلفة لجميع أقسامه كما صور مناظرها المختلفة مشيراالى كل جزء يصوره واعتمد كثيرا على أحـوال القصر الحالية ، وقد انتهى هذا الباحث الى رأييؤكد فيه انه بناء اسلامي • لكنه يختلف مـع مس بل وقال إنه لا يمكن أن يكون قد شيد فيالعصر الأموي • وفي نفس العامين زار الموقـع موسـيل Musil (نفس المصـدر السابق)وذهب الى رأي هو ان هذا القصر سمي بالأخيضر نسبة الى اسماعيل بن يوسف الاخيضر الذي جاءالى اليمامة وأقامه القرامطة عاملا على الكوفـة في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشـر الميلادي(٣٠٥هـ/٩٢٧م) ويؤكـد هـذا المستشـرق أن الأخيضر هو دار الهجرة التي أسسها هذا الحاكمالمذكور •

ويؤكـد الدكتور المرحـوم ناجي الاصيل(مجلة سومر ، المجلد الثامن ، ص ٨ ، ٩ سـنة ١٩٤٧) بأن هذا الحصن بناء اسلامي عربي بنتهيد عربية مسلمة وفي عصر اسلامي لأن ما فيـه يعتبر « .. مزيجـا حميـلا من الفـن المعماري الساساني والبيزنطي ومبدأ تكوّن الطراز الفني العربي ... » ، فقـد زاره الدكتور وتمشى في قاعاته وأروقته ممـا حملـه على الاعتقـاد أنه « .. بيضة الطاووس من الحمراء في الاندلس ،وان هذا الفن الرفيـع الذي تكامل هنـاك كان مبدؤه هنا ... » ويستطرد الدكتور الاصيل في وصف مداخل القصر وعقاداته واقواسه فيبـدو أمامه « .. مصغّر طاق كسرى ، ذلك الطـراز الذي نجده في مدخل دار الخليفة في سامراء ...» وان ما في القصر من البيوت والمسـجد والمحراب الواقع في جهة القبلة تؤكد اسلامية وعروبة هذا البناء الذي يعتبر « حلقة عظيمة في تأريخ تطـور فن البناء الاسلامي » .

ويذهب الدكتور المرحـوم مصطفى جواد(نفس المصدر) الى رأي يتناقض كل التناقض مع رأي الدكتور ناجي الاصيل فيبعده عن العروبة والاسلام لأن اسلوب هذا الحصن وطرز بنائـه يختلف عن الطرز العربيـة الاسلامية . ويؤكد الدكتور مصطفى أنه ساساني ، وهو « .. حصن عين التمر ، تلكم البلدة العتيقة التي عفت آثارها ولم يبق الا حصنها ، أعني الأخيضر ، ان عـدّ الأخيضر من الابنية العربية بل الاسلامية هـو تحميل للتأريخ والفن ما لا يطيقان .. وانه بنـاء لم تعرفه العرب وليس له شبيه في آثارهم ... ».

أما العلامة الفاضل السيد محمود شكري الآلوسي (لغة العرب ، ج ١ ، السنة الثانيـة ، ١٩١٢) فقد ذهب الى القول بأن هذا الاسـم « الاخيضر » محرّف عن « الأكيدر » الذي كان يسمى به أحد أمراء كنده الذي اسلم في صدر الاسلام . ويؤكد أن القصر قد بناه ذلك الامير . ويؤيد هذا القـول الاستاذ توفيـق الفكيكي(المقتطف . ج ٩٤ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٩ ، سـنة ١٩٣٩) ويقول أن هذا الحصن هو « دومـة الجنـدل .. » الذي بنـاه الامير أكيدر بن عبدالملك .

ولربما تسميته بالأخيضر (نشرة الأخيضر . ص ٣٥ عام ١٩٣٧) كانت بسبب اخضرار الموقع . فان كلمة الأخيضر . معروفة في البادية . فالوادي الذي يمر بالقرب من الاخيضـر نفسـه يسـمى بوادي الأبيـض نسبة الى بياض رماله .

(المترجم)

قصر الاخيضر

الاخيضر قصر محصن مشيد في قلب البادية على وادي الابيّض ، ويبعد ١٢٠ ميلا عن الجنوب من بغداد . مما لا شك فيه فان اسمه الحالي حديث ، فقد وجدت اقدم اسم له في تقرير بيترودلافاله Pietro della Valle's Travels عام ١٩٢٥ .

ويعتبر الاخيضر في موقعه هذا البعيد عن العمران من المباني المدهشة التي رايتها (انظر لوح ١ و ٢) فله سور محصن مستطيل الشكل ابعاده ١٧٥×١٦٩ مترا (٥٧٥×٥٥٥ قدم) ، مع مدخل في منتصف كل ضلع (انظر لوح ١ و ٢) . هناك اربعة ابراج دائرية في كل زاوية من السور وعشرة ابراج متوسطة نصف دائرية في كل ضلع لم تكن بحجم ابراج المداخل . يقع القصر داخل هذا السور الضخم ويلتصق بضلعه الشمالي التصاقا كاملا . فيمتد القصر ١١٢م (٣٧٠ق) من الشمال الى الجنوب ، و ٨٢م (٢٧٠ق) من الشرق الى الغرب (انظر الشكل التخطيطي ١) ، وهذا السور مجهز ايضا بأبراج اخرى نصف دائرية . ويشترك المدخل الرئيسي للقصر مع المدخل الشمالي للسور الرئيسي فيشكلا مدخلا واحدا . لقد شيد المبنى من حجارة الكلس غير المنتظمة والجص .

السور الخارجي

يبلغ الارتفاع الحالي لجدران السور حوالي ١٧م (٥٥ق)[1] وحيث ان الجدار الخارجي قد اندثر فلابد ان ارتفاعه الاصلي كان على الاقل ١٩م (٦٢ق) . ويبلغ قطر كل برج من ابراج الزوايا حوالي ١٠ر٥م (١٦½ق) والوسطى ٣٠ر٣م (١٠½ق) فقط مع وجود انحدار يبلغ ١٢م (٤٢½ق) وبروز حوالي ٦٠ر٢م (٨½ق) خلف وجه اقواس الجدار . كما ويبلغ سمك الجدار حوالي ٦٠ر٢م (٨½ ق) مع اعمدة مستطيلة تحمل اقواسا على كلا الوجهين ، وعلى هذا الاساس فان سمك الشرفة من مستوى الارض حوالي ٦٠ر٤م (١٥ق) . وعلى الجانب الخارجي للشرفة المعقودة توجد فتحات (تجاويف) يبلغ عرض كل منها حوالي ٤٠ر١م (٤½ق) وعمقه ٥٠سم (١٩½ عقدة) . كل تجويف خامس منها ينفتح لاحدى الغرف الصغيرة الواقعة فوق كل برج . اما التجاويف الاربعة الباقية فتستخدم كمزاغل طولية للسهام . وعلى طول الحافات الخارجية لكل من هذه التجاويف توجد ثغرة يبلغ عرضها ١٧ سم (٦½عقدة) تتطابق حافاتها الداخلية مع الوجه الخارجي للجدار خلف لفتحات المقوسة . ونتيجة لهذا نجدها تنفتح في قمة القوس على طرفها الداخلي . ومن خلال هذه الفتحات الطولية ترمى القذائف والسهام على العدو الواقف عند اسفل الجدار . ان هذا الاستعداد المسبق في تجهيز المواد الملتهبة والذي يمكن المدافع الاستمرار على اطلاق القذائف من خلال الشرفة المذكورة ، وعلى امتدادها ، يعتبر من الوسائل الحربية التي لم تعرفها اوربا قبل القرن الرابع عشر .

وفي الضلع الشمالي للقصر توجد بقايا من جدار بين برجين ما زال شاخصا الى ارتفاع شاسع ويبدو بوضوح انه قد سند برواق مقنطر غير نافذ له اقواس تشبه حذوة الفرس .

في كل من الزوايا لاربع للاسوار يوجد سلم يوصل الى الشرفة التي تمتد حول السور ، لكن جميعها قد دمر تدميرا مشينا ما عدا سلم الزاوية الجنوبية الشرقية . كما ويمكن الوصول الى الشرفة بواسطة سلمين يحيطان بالمداخل الشرقية والجنوبية والغربية .

المداخـــل

تكاد المداخل الثلاثة التي مر ذكرها قبل قليل ان تكون متشابهة الى حد كبير . فالمدخل المقوس المعقود الذي يبلغ عرضه ثلاثة امتار (١٠ قدم) وضع بين برجين ربع مدورين يبرزان بالضبط بنفس المسافة كبقية الابراج (انظر لوح ٣ و ٤) . وعلى يمين المدخل ويساره توجد دخله (افريز) عرضها ٢٠سم وعمقها ٣٠سم (٧½ × ١١½ عقدة) مما يؤكد وجود باب حديدي مشبك في هذا المكان . وفي الخلف على مسافة ٩٥ر١م (٦½ عقدة) ، يوجد قوس آخر على امتداد ٨٣ر١م (٦ ق) ، وبين الاثنين يوجد دهليز ابعاده ٣×٩٥ر١م (١٠×٦½ ق) عليه عقادة مقوسة تتخللها ثلاث فتحات طولية عرض كل منها ١٧ سم (٦½ عقدة) تتصل من جدار لآخر (انظر الشكل التخطيطي ٢) . والان لنفرض ان الاخيضر على وشك ان يهاجم . فالباب الحديدي المشبك يحفظ في مكان يمكن سحبه الى الاعلى بواسطة رافعات في الغرفة العليا (فوق المدخل) ليدخل المهاجمون الدهليز ويحاولوا تحطيم الباب خلف الممر

(١) لهذا السور جدار داخلي واخر خارجي بينهما مجاز معقود عرضه متران يمتد على طول السور من جهاته الاربع ويتصل بغرفة مدورة داخل كل برج من الابراج (انظر نشرة الاخيضر، ص ٧ ، مديرية الآثار ، بغداد ١٩٣٧) « متابعة المترجم »

الداخلي . وبعد اشارة خاصة من رجال ينظرون من خلال الفتحات في العقادة فوق الممر تنزل الباب الى الاسفل فينحصر الاعداء وترمى عليهم القذائف والحديد الملتهب او الزيت المغلي .

لقد كان هذا الباب الحديدي المشبك (Cataracta) معروفا لدى الرومان . فقد اشار اليه بوليبوس (bk. x, 33, 8) Polybius (٢) وليفي (bk. XXVII, 28) Iivy(٣) في تقريرهم عن سلپية(٤) Salapia وقد وصفه فيجيتوس (Epitoma Rei Militaris, IV, 4) Vegetius(٥) : « لكن الاكثر فائدة هو الابتكار القديم وذلك باضافة برج بارز الى الجزء الامامي للباب في المدخل الذي وضع فيه باب حديدي كبير Porticullis مشبك (Cataracta) معلق بحلقات حديدية بشكل يمكن اسقاطه خلف العدو فيما لو انه اقتحم المدخل . فيجد نفسه محبوسا فيقضى عليه »(٦)

كانت لبوابة بومبياي الهيرقلية(٧) Herculaneum Gate of Pompii (قبل عام ٧٨ قبل الميلاد) مثل هذا الباب ، كما وانه استعمل في المدخل الروماني لقصر الشمع في القاهرة القديمة .

المدخل الرئيسي

يقع في منتصف الضلع الشمالي حيث توجد سلسلة من ابراج نصف دائرية يقسمها جسم (برج) ناتىء كبير يبرز حوالي ١٢ر٥ مترا (١٦½ قدما) ويبلغ عرضه حوالي ١٥ر٩٠ مترا (٥٢½ قدما) . يقع المدخل في الوجه الخارجي لهذا البرج اذ يؤدي الى غرفة ضيقة معقودة عرضها ٣ م وطولها ٨٠ر٥ م (١٠ × ١٩ق) . وعلى يمين المدخل ويساره توجد مداخل صغيرة تنفتح لغرف مظلمة مستطيلة الشكل عدا جزءا مقوسا من جدار في زواياها الداخلية .

اما العقادة فوق مدخل الابوان فتتكون من سبعة اقواس عرضانية عرض الواحد منها ٦٥ سم (٢٥½ عقدة) تنفتح للغرفة التي فوقها . ان هذه الفتحات الطولية ، كباقي الفتحات في المداخل الاخرى ، تمكن المدافع في الغرفة فوق المدخل من اسقاط الرصاص الملتهب او الزيت المغلي من خلالها على العدو الذي حاول اقتحام المدخل . لقد اندثرت الاقسام الوسطى لجميع هذه الاقواس بحيث يمكن ان يرى سقف الغرفة العليا من ممر المدخل . وعلى كل جانب من الايوان ولمسافة ٧٠ر١م (٥½) من طرفه الداخلي توجد دخله تبلغ نحو ١٨ سم (٧عقدة) عرضا وعمقا ، كما ويوجد على بعد حوالي ٥٥سم (١١½ عقدة) — الى الجهة الشمالية ، شق كامل في البناء يبدو بوضوح على ارتفاع ٥٠ر٢م (٨ ق) . وكما اشار رويتر Reuther (٨) فان هذا يفسر بان المدخل الحالي مع غرفتيه الجانبيتين المدتين للحراسة لم تشكلا جزءا من التصميم الاصلي الذي وضع نقط للغرفة القبية والمجاز المعقود والباب الحديدي المشبك ؛ وهذا الاخير (الباب) محمي ببرجين ربع مدورين ؛ والجميع كانت قد صممت كباقي المداخل الثلاثة الاخرى. ان الجزءين المقوسين من البناء في الغرف المظلمة هما ، بطبيعة الحال ، الوجوه الخارجية لهذين البرجين . اما السور الخارجي الضخم(٩) فقد تقرر بناءه بعد ان وصل البناء الى ثلاثة امتار (١٠ قدم) . وبصورة مشابهة صمم برج المدخل المستطيل الشكل الكبير مع عقادته ذات الفتحات الضيقة وغرف الحرس الجانبية . بعد هذا كله بوشر ببناء الجدار الشمالي للسور فالتصق مع الامتار الثلاثة التي سبق بناؤها من الجدار الشمالي للقصر ، وعلى هذه النقطة اندمج الضلع الشمالي للسور مع الضلع الشمالي للقصر واصبحا قطعة واحدة . وتوجد على الطرف البعيد عقادة مقوسة تنفتح لغرفة طولها ١٥ر٤م وعرضها ثلاثة امتار (١٣½ × ١٠ قدم) يمكن ان تصبح مربعة

---

(٢) الكتاب العاشر ، : ٣٣ : ٨ .

(٣) مستشرق ايطالي توفي عام ١٨٧٢ ، نشر معجما في الهيروغليفية والعبرية والقبطية .

(٤) الكتاب السابع والعشرون : ٢٨ .

(٥) المجلد الرابع ص ٤ .

(٦) I owe this reference to Mr Sidney Toy.

(٧) مدينة قديمة في ايطاليا دمرت بانفجار فيسوفيو اذ غمرتها سيول المواد البركانية عام ٧٩ قبل الميلاد (المترجم) .

(٨) Ocheidir. P. 17.

(٩) ان القصر شيد اولا بصورة منفردة مع سوره الخاص وابراجه الخاصة ، غير انه عندما وصل البناء الى ارتفاع ثلاثة امتار حدث ما يحمل القوم على الاعتقاد بان هذا السور مع ابراجه الخاصة لا يكفي لحماية القصر من الهجمات المتوقعة ، ولذلك قرروا حماية القصر بحصن منيع فاوقفوا بناء القصر ثم زادوا سمك سوره الامامي وادمجوا ابراجه الامامية التي كانت قد شيدت قبلا في هذا السور الجديد المجهز بابراج كبيرة . وعندما تم ذلك كله استمروا على تشييد السور قطعة واحدة وعلى اتمام بناية القصر والحصن في وقت واحد . (نشرة الاخيضر . مديرية الآثار العامة ص ٣٩) « المترجم » .

الشكل اذا اضيف اليها القبو المستطيل ، وفوق هذه الغرفة المربعة الشكل بنيت قبة ذات اخاديد طولية محمولة على الزوايا لدعائم مثلثة ومسطحة .

هناك ثلاثة اقواس مدببة تؤدي الى خارج هذه الغرفة المقببة : ينفتح اثنان منها لاروقة معقودة طول كل منهما ٢٥ر٣م وعرضهما حوالي ٥ر٣م (١١٥ × ١١½ ق) وتؤدي هذه الاروقة الى الاقسام الشرقية والغربية للسور الخارجي .

ان المداخل على كل طرف لم تكن في مركز الكوليدور بل قريبة ومقابلة لجانبه الجنوبي مما يفسر ان هذين الرواقين استعملا كاسطبلات للخيول (١٠) اذ لا زالت هناك بقايا للمعالف على طول الجدار الشمالي .

على الجانب الجنوبي للمربع المغطى بالقبة(١١) يوجد مدخل مقوس يؤدي الى ايوان كبير معقود عرضه ٧م (٣٢ق) وعمقه ٥٠ر١٥م (٥١ ق) وارتفاعه ٣٣ر١٠م (٤٢ ق) مع فتحات مقوسة على يمينه ويساره (انظر لوح ٥) .

هناك غرف مظلمة خلف هذه الفتحات ربما كانت تستعمل مخازن ، وخلفها ايضا ، الى الغرب، مسجد فيه محراب مقعر مستطيل الشكل ، والى الى الشرق فناء محاط بغرف معقودة . (انظر الشكل التخطيطي ١)

المسجد

يمكن الدخول اليه من الضلع الغربي للكوليدور (المجاز) العرضاني بواسطة بابين تنفتحان لحيز عرضه ٢٠ر٢٤م وعمقه ٦٥ر١٥م (٧٩½ × ٥١½ق) . كان هذا الحيز مملوءا بالانقاض ، لكن مديرية الآثار عملت على تنظيفه ولا زالت بقاياه موجودة وواضحة ومن السهولة اعادة بنائها . كما ومن الواضح انه كان ذات مرة ممشى جانبيا منفردا ذا خمسة اقواس على جبة القبلة مرتكزة على عمدة مدورة مبنية من قطع خشنة من كسارة الحجارة قطر كل منها مترا واحدا (٣½ ق) وهذا الرواق المعقود يسند عقادة مقوسة لكنها انهارت بسبب انعدام الرباط الخشبي للدعامة الافقية الرئيسية (tie-beams) التي تقاوم قوة الدفع . وهذا ما لوحظ ايضا على الاروقة الشرقية والغربية التي يبلغ كل منها ٣ امتار عمقا و ١٠ امتار طولا (١٠ × ٣٢ق) . اما الجانب الشمالي فهو خال من الاروقة ، لهذا فلابد ان ابعاد الصحن كانت ٢٠ر١٦ × ٣٠ر١٠ امتار (٥٣½ × ٣٣¾ق) .

يقع المحراب في وسط الجدار الجنوبي تقريبا ، وهو مستطيل الشكل ومقعر عرضه ٥٢ر١ متر وعمقه ٥٢ سم (٣½ × ١½ ق) مغطى بشبه قبة محمولة على الزوايا فوق جسور مثلثة افقية . ان هذا التصميم للمحراب بشكله المستطيل بدلا من شبه الدائرة هو الميزة التي تتصف بها بلاد فارس وما بين النهرين في العصور الاولى ، ومثال على ذلك طربق خانة في دمغان(١٢) والجامع الكبير في سامراء، وجامع ابي دلف ، ونايين(١٣) ومباني اخرى .

قاعة العرش

لنعد ثانية الى القاعة الكبرى (لوح ٥) . ففي طرفها الخارجي يوجد مربع صغير عليه قبه ، ينفتح منه الى اليمين واليسار كوليدور (مجاز) معقود يبلغ عرضه ما بين ٥٠ر٣ الى ٦٠ر٣م (١١½ـ١١¾ق) وبمسيرنا قدما الى الامام نجد انفسنا في قاعة العرش الكبيرة التي يبلغ عرضها ٢٧م وعمقها ٧٠ر٣٢م (٨٩ × ١٠٨ق) وقد تكونت جوانبها من اقواس غير نافذه (متشاكي) ستة منها على الجانبين الشمالي والجنوبي (انظر لوح ٦ و ٧) وتسعة على الجانبين الشرقي والغربي . ففي الجانب الجنوبي يوجد ايوان معقود وعرضه ٦ امتار وعمقه ٧٤ر١٠ امتار (١٩¾ × ٣٥½ق) وغرفة مربعة الشكل خلفه . وبصورة اكيدة ، فان العقادة (مدثورة الان) التي كانت فوق هذه الفتحة قد ارتفعت بصورة جيدة فوق الواجهة على كل جانب ، وبدون شك كانت قد احيطت باطار مستطيل . لذلك فاننا نجد لدينا الان اول مثال على طراز فن العمارة في بلاد فارس في كل زمان ومكان ، وهذا هو البيشتاق (او الواجهةالامامية للمبنى) . ان جميع السقوف القليلة العمق ، الشبيهة بالقبة ، للمشاكي (جمع مشاكاة) على كل جانب(١٤) مبنية من الآجر بمسافات ثلثين وثلثه وضع بعضها بشكل افقي والآخر عمودي لتكون اشكالا هندسية (انظر لوح ٦) كما هو الحال في باب بغداد في مدينة الرقة . وكما رأينا ، فان هذا الطراز يسمى « هزارباف » وهو موجود في جميع

(١٠) كما انها تعرف لدى العامة بالكمرك . (انظر نشرة الاخيضر مديرية الآثار . ١٩٣٧) « المترجم »

(١١) يقصد به الغرفة المربعة الشكل التي بنيت عليها القبة ذات الاخاديد الطولية « المترجم » .

(١٢) مدينة في ايران (المترجم) .

(١٣) جامع في ايران (المترجم) .

(١٤) من جوانب قاعة العرش (المترجم) .

العمارات العراقية والفارسية آنذاك. هناك غرفتان معقودتان على كل جانب من جوانب الايوان الكبير والقسم المفتوح لخارجي له ؛ فالتي الى اليمين لها عقادة مزخرفة . ان هذه المجموعة من الغرف كانت بحدورة اكيدة قاعات ؛ واحدة للاحتفالات العامة والاخرى للاحتفالات الخاصة تجاورهما غرفة الاستقبال .

اما الكوليدور (لمجاز) المعقود الطويل الذي سبق ذكره فيحيط بصورة كاملة بالقسم المركزي[١٥] للمبنى الذي تبلغ ابعاده حوالي ٨٢ر٧٠×٢٠ر٣١م (٢٣٢×١٠٢ ق) ويفصله (القسم المركزي) عن مجموعة اخرى من الغرف المعقودة وعن قاعتين . ويوجد على الجهة الشرقية والغربية للكوليدور اربع غرف مستقلة معقودة ؛ لكل منها فناء خاص ؛ اعتبرها كاربعة بيوت كما هو الحال في قصر المشتى في الاردن .

البيوت الاربعة

لا تتصل هذه البيوت الاربعة بعضها ، ويؤدي الى كل واحد منها باب واحد فقط ينفتح من

متوسطة . ان الجهة الشمالية والجهة الجنوبية اشغلتا بوجهة متكونة من ثلاثة اقواس اوسطهما اوسع من القوسين الجانبيين . هذه الاقواس تشكل رواقا في مؤخرته ثلاث غرف متوازية ذات عقادات متوسطة ، لكل غرفة جانبية بابان احدهما ، كالمعتاد قرب الطرف الخارجي الجدار ينفتح للغرفة الوسطية ، والآخر للرواق .

لدينا الآن مجموعة من خصائص فن العمارة نجدها في البيوت الاربعة كلها وسنسميها «مجموعة الايوانات» . ان الغرفة الوسطية مع الرواق المعمود العريض كانت على اغلب الظن للاستقبال . والغرف الجانبية للحياة المنزلية العائلية ، اما المجموعة المقابلة للجنوب فهي مخصصة لحياة الشتاء ، والمقابلة للشمال لحياة الصيف ؛ وعلى الجانب الخارجي لمدخل السلم الذي يؤدي الى السطح ، هناك ممر ضيق بين السلم والجدار الخارجي يفضي الى غرفة طولها ٦٠ر١٧م وعرضها ٣½م (٥٨×١١½ ق) بنيت بشكل عرضاني خلف الغرف لثلاث ذات العقادات المزخرفة . وعلى الجانب المقابل للفناء يوجد ممر مشابه يؤدي الى غرفة مماثلة خلف الغرف الثلاث

علينا الان متابعة هذا العنصر لغرض تحديد الازمنة التقريبية لهذا الحصن . يظهر مما سبق في وصف البيوت الاربعة في الاخيضر ان فيها مميزات اول ما تشبه قصر شيرين لاحتوائه على مسجد للصلاة مما يؤكد انه بناء اسلامي لا يمكن ان يكون قد شيد قبل عام ٦٢٧م وهو عام تحرير العراق . لكن احتواء هذا المسجد على محراب مقعر (انظر لوح ١٠ و ١١) ؛ وهو الطراز الذي لم يكن معروفا لاول مرة قبل عام ٧٠٩م يدل على ان زمن الاخيضر يجب ان يكون من بعد عام ٧٠٩م .

هناك عنصران معماريان يفرضان نفسيهما كمبادىء اساسية للمناقشة : اولا ، طرز العقادة المتقاطعة التي توجد في ثمانية مواضع من الكوليدور الكبير . ثانيا ؛ طراز الزخرفة الهندسية (هزارباف) بالآجر المشاهد في الجدار الجنوبي لقاعة العرش الكبرى . ان هذين الطرازين غير معروفين في فن العمارة الساسانية ، لكنهما ظهرا اول مرة في باب بغداد في الرقة . وعلى هذا الاساس فانه قلما يمكننا وضع تاريخ الاخيضر في نهاية القرن الثامن بسبب الحقبة الزمنية (١٥٠ عاما) التي سبقت بناء باب بغداد ، ولاحتمال وجود نفس هذين العنصرين في المواقع الاثرية الاخرى التي شيدت خلال هذه الحقبة من الزمن . يوجد عنصر ثالث تكرر استعماله عدة مرات في الاخيضر ، اي المشاكي المغطاة بقبب مجوفة محمولة على دعائم مثلثة افقية . مثل هذه المشاكي نجدها تزين قاعدة مئذنة (برج) الملوية في سامراء (٨٨٩/٨٤٨) — (٨٥٢/٨٥١م) ٢٣٤ — ٢٧٠هـ .

وانه لمن الملاحظ حقا ان الاقواس المدببة لم تكن من العناصر الاساسية في الاخيضر كما هو الحال في سامراء (٨٣٦م) ، وهذا مما يحملنا على الاعتقاد ان الاخيضر اقدم زمنا من سامراء .

استنادا على الاسس المعمارية فانه ليس من السهل تثبيت تاريخ الاخيضر على فترة اقرب من الفترة ما بين ٧٢٠ — ٨٠٠ م .

علينا الان متابعة خطوط تاريخية ذات عناصر اساسية فالاخيضر لم يشيد على يد خليفة اموي ، وهذا مؤكد ، لان الخلفاء الامويين اقاموا مساكنهم على الجانب السوري من الصحراء باستثناء مروان الثاني عاش في حران ما بين ٧٤٤ — ٧٥٠م . ورغم هذا فالاخيضر يجب ان يكون قد شيد في عهد امير او حاكم عراقي كالحجاج (٦٩٤ — ٧١٣م) له من السلطة والقوة ما تمكنه من انجاز مثل هذا البناء . فقد سكن الحجاج واسط ، وبالتأكيد فقد لحقه حكام اقوياء آخرون ولابد انهم سكنوا بعض المدن المهمة كالكوفة والبصرة . لهذا فان اية فترة زمنية سابقة لعام ٧٥٠م لا يمكن الاخذ بها ، وليس هناك ما يتعارض مع فن العمارة عند وضع الاخيضر بعد هذا العام .

اما بالنسبة للخلفاء العباسيين فقد انقطعوا عن حياة البداوة التي عاشها اسلافهم الامويون ، فكانوا من سكنة المدن ، وقد سكنوا بغداد على الاقل بعد عام ٧٦٤م . فلو استثنينا ايضا الخلفاء العباسيون من بناء الاخيضر ، فمن الذي استطاع بناءه ؟

عندي ان عيسى بن موسى ، ابن الاخ الاكبر للسفاح والمنصور ورئيس العائلة العباسية ، هو الشخصية القوية التي بنت هذا القصر لان تاريخ حياته يتلاءم مع ضرورة التشييد .

يخبرنا الطبري بان السفاح(اول خليفة عباسي) بعد حصول اخيه المنصور على مركز الخلافة وافق ان يكون عيسى بن موسى ولي العهد الشرعي بعد المنصور وصادق على ذلك الرعية وايدوه .

وعندما اصبح المنصور خليفة ، ولاول فترة ، اكرم عيسى بن موسى وعينه واليا على الكوفة ، وبعد تاسيس مدينة بغداد اعطاه قصرا فخما فيها وجعل له الاولوية بين كل الناس . لكنه فيما بعد ، وفي غضون ٧٦٤ — ٧٦٥م (١٤٧هـ) عمل الكثير للتخلص منه مستعملا نفس الطرق التي استعملها داود اتجاه اوريا الحتيت(٢١) وذلك بارساله الى اخطر المناطق اثناء حملاته العسكرية لغرض ان يقتل اثناءها فيسهل عليه تمهيد السبيل لابنه المهدي ليكون الوارث للخلافة من بعده . وما ان اخفقت هذه الحيلة حتى التجأ الى الحيلة الاخرى .

كان عبد الله بن علي الذي خرج على المنصور مسجونا آنذاك . وقبل ان يسافر المنصور الى الحج قال لعيسى بن موسى : « يا عيسى ، خذ هذا الرجل واضرب عنقه في السجن في اليوم الذي اسافر فيه ولا تطلع على امره احدا » . ولم تخف الحيلة على عيسى وما يدبره المنصور له ، فلم ينفذ الامر . لكنه عندما كتب له المنصور من الكوفة يساله ما نعمل في الامر الذي اوعز اليه فيه ؛ اجابه عيسى بانه قد نفذ ما امره به . وعندما قدم المنصور الى

(٢١) داود : هو الملك بن اشعيا من سبط يهوذا ومن بيت لحم اليهودية ، كان ورعا مطيعا لشريعة الله الا انه اغاظ العلي اذ قتل اوريا احد اركان جيشه بعد ان زنى ببتشابع امراته وندم على خطئه ندامة عميقة يضرب بها المثل (عن المنجد في الادب والعلوم للاب لويس اليسوعي [متابعة المترجم]

بغداد دس الى عمومته من يحركهم على مسألة هبة عبدالله بن علي لهم . بعد هذا امر عيسى باخلاء سبيل عبدالله بن علي . لكن عيسى اجاب : « لقد امرتني بقتله فقتلته » فانكر المنصور وقال : «حاشا لله ان ازمي قتل عمي» فالتفت الى عمومته وقال : «هذا هو عيسى ؛ خذوه واعملو به ما شئتم ؛ وان اردتم قتله فانتم احرار بذلك » . فاجابه عيسى على الفور : « دبرت علي امرا فخشيته فكان كما خشيت ، هذا عمك حي سوي ؛ ان امرتني بدفعه اليك دفعته » .

بعد كل هذا ؛ حاول المنصور دس السم ؛ وقد نجى عيسى منه ؛ لكن شعره قد تمعط وبقي معتل الصحة .

واخيرا التجأ المنصور الى استشارة خالد ابن برمك (البرمكي) الذي لم يكن اقل قسوة من سيده فقد حاول اقناع عيسى بن موسى للتنازل عن حقوقه فلم يفلح . بعد هذ احضر ثلاثة[٢٢] شهود زور واتفقوا ان يقسموا اليمين على تنازل عيسى عن حقوقه امامهم . ثم دعا المنصور الى عقد اجتماع كبير قدم اثناءه شكره لعيسى لتنازله عن حقوقه ؛ لكن عيسى لم يثنه هذا التصرف عن المطالبة بحقوقه، فوقف معارضا وانكر تنازله ، وانه لم يقدم على مثل هذا الامر . فقام خالد البرمكي وشهوده الثلاثة وشهدوا زورا امام الحفل بان عيسى قبل بضعة ايام وافق بحضورهم على التنازل[٢٣] فاسقط في يده ولم يعبه غير اللوم والتوبيخ .

بعد كل هذا ؛ توصل المنصور الى قرار نهائي. فقد اخبر[٢٤] بان عيسى بن موسى انما يمتنع من التنازل عن البيعة لانه يرفض الامر لابنه . فاستدعى لمنصور كلا من عيسى وابنه الى القصر ، ثم امر رئيس الحجاب بان يتظاهر بخنق الابن امام ابيه . وعندما وضع الحبل في رقبة الابن وكاد ان يخنقه اضطر عيسى الى التنازل عن البيعة للمهدي انقاذا لحياة ابنه من الموت .

بعد ان استتب الامر للمنصور واصبحت البيعة لابنه المهدي اكرم عيسى بن موسى وامر باعطائه عشرة ملايين درهم[٢٥] (٥٠٠ر٠٠٠ باوند)، كما واقر له البيعة من بعد المهدي فيما لو بقي حيا بعده . وفي عام ٧٧٥م (١٥٨هـ) توفي المنصور فتسلم البيعة ابنه المهدي الذي اعلن بعد ثلاث سنين من تسلمه الحكم (اي عام ٨٧٨م) بان البيعة من بعده لابنه هارون الرشيد وليست لعيسى بن موسى. لقد رفض عيسى هذا القرار فحرمه المهدي من ولاية الكوفة بعد ان اشغلها ثلاث عشرة سنة ، بعد هذه الاحداث سلم عيسى الحياة ؛ فقرر ان يعيش في عزلة تامة بعيدا عن الكوفة ؛ ولم يزرها الا مرة واحدة في كل اسبوع لصلاة الجمعة . فقد اعتاد ان يقف امام الجامع ، فيترجل عن حصانه ويؤدي صلاته ثم يرجع الى حصانه ليوصله الى عزلته .

اليس كل ما ورد يتلاءم مع الاخيضر ؟ ان الذي استطاع بناءه رجل غني جدا كعيسى الذي لم يظهر في هذه الفترة من بين الامراء العباسيين شخص معروف مثله عاش بمثل هذه العزلة . بالاضافة لى هذا فان المسافة بين الاخيضر والكوفة (٥٠ ميلا) يمكن قطعها على مرحلتين بسيطتين اذا توفرت عملية الابدال في الخيول ؛ وعندها نأتي الى عطشان الذي يبدو بوضوح انه يحمل نفس تاريخ الاخيضر ؛ وقد بني على المسافة المطلوبة عند الرجوع مباشرة من الاخيضر الى الكوفة .

اضف الى هذا فانه (عطشان) خان من النوع المفرد لانه لا يحتوي على فناء في اوسط محاط باثنتي عشرة غرفة متشابهة ، بل على العكس ، فانه يشتمل على ايوان كبير وجنبه مطبخ وقاعة كبيرة معقودة يبلغ طولها نحو ١٢م (٤٠ق) مع سقف اشبه بالقبة على طرف واحد (G)، والتي اعتقد انها كانت تستخدم كغرفة استقبال للامراء وذلك للشبه القريب مع قاعة لاستقبال المعقودة في جبل سيس .

---

(٢٢) بعد ان رجعت الى الطبري ، المجلد الاول ص١٩ وهو المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف وجدت ان الاصح « ثلاثون شاهدا » وليس ثلاثة شهود كما ورد على لسان المؤلف . « المترجم » .

(٢٣) الواقع ان خالد البرمكي وجماعته بعد ان فشلوا من اقناع عيسى بن موسى على التنازل عن حقوقه للمهدي اتفقوا بينهم ان يكذبوا على المنصور ويخبروه ان عيسى بن موسى وافق على التنازل وعلى هذا الاساس عقد المنصور الاجتماع ليوقع بالبيعة للمهدي . انظر نفس المصدر . « متابعة المترجم » .

(٢٤) اخبره عيسى بن علي (انظر الطبري المجلد الاول ص ١١) « المترجم » .

(٢٥) احد عشر الف الف درهم «انظر نفس المصدر» «المترجم».

ان كنت قد توصلت الى نتائج مرضية ، فعندي ان الاخيضر وعطشان كانا قد انشا عام ١٦١هـ (٧٧٨م) وهي السنة التي انفرد بها عيسى لحياة العزلة(٢٦) .

(٢٦) يذكر المؤلف الاستاذ كريزويل ان المسافة بين الاخيضر والكوفة ٥٠ ميلا اي ٧٥ كيلو مترا ، وهذا يعني ان الفارس يحتاج الى سبع ساعات ونصف (بمعدل عشر كيلومترات في الساعة) لكي يقطع المسافة بين الاخيضر والكوفة، ويحتاج الى مثلها عند الرجوع مما يتناقض مع ما بينه المؤلف من ان عيسى بن موسى يأتي الكوفة كل اسبوع مرة واحدة ليؤدي فريضة الجمعة ، فان كان الاخيضر هو المكان الذي فضله عيسى لحياة العزلة، فاكبر الظن ان عيسى كان يحضر صلاة الجمعة في كربلاء وليس في الكوفة ، كما بينه المؤلف ، لان المسافة بين كربلاء والاخيضر قليلة لا تزيد على ٣٠ كيلومترا وعلى هذه الفرضية فيستطيع الفارس قطع هذه المسافة بفترة قليلة من الزمن . بالاضافة الى ان هناك تناقضا ايضا على ما اعتقد بين ما نسبه المؤلف الى بناء القصر من قبل عيسى بن موسى ـ بعد أن حصل على عشرة ملايين درهم من المنصور (اكراما له لتنازله عن البيعة للمهدي) ثم انفراده بعزلة كاملة بعيدا عن الكوفة ـ وبين واقع القصر . فالقصر بوضعه الحقيقي ، واسواره الضخمة ، وابراجه ومزاغله وابوابه وأماكن غلي الزيت وصهر الحديد كي تصب على الاعداء ، المهاجمين من خلال المزاغل في المقادات فوق الدهاليز كلها تدل على ان القصر انما بني للمقاتلة لا للعزلة والتعبد . وعلى هذا الاساس فان كان لابد لتحقيق المؤلف (مع احترامي لرأيه) من ان عيسى بن موسى هو اقوى من يقع عليه الاختيار لبناء مثل هذا الحصن فاعتقد انه بناه اثناء فترة ولايته على الكوفة (التي استمرت ثلاث عشرة سنة) عندما كان تابعا للخلافة بامر من الخليفة وبمال من الدولة ليجعله حصنا يحمي الكوفة والانبار وبالتالي بغداد (بعد ان نقلت العاصمة اليها من الانبار) من مهاجمة الخارجين على الحكم . اذا فلابد من ان هناك ضروفا حربية تستدعي بناء مثل هذا الحصن المعزز بالاسوار والابراج وبجميع الوسائل الحربية . ان حوادث التاريخ تؤكد ذلك . فالمعروف انه اثناء خلافة المنصور حدثت عدة فتن واضطرابات كانت معظمها تهدد عرش المنصور ، وكان لعيسى بن موسى الدور الكبير في القضاء عليها . فقد خرج عليه محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب (ابن الاثير . الكامل في التاريخ ، ج٥ ص ٥٦٥) في المدينة ثم انبرى معه اخوه في البصرة عام ١٤٥هـ وكادت هاتان الحادثتان ان تهز عرش المنصور ، وكان عيسى بن موسى اقوى من يعتمد عليه المنصور في اخماد هذه الاضطرابات . ولم تهدأ الحياة ، حيث بقي عرش المنصور مهددا بالخطر . فقد خرج عليه عبدالله بن علي (الطبري ج٨ ص ١١ ـ ١٩) ثم قتله المنصور غدرا ، وتبعه ابو مسلم الخراساني وتتابعت الفتن والاضطرابات ثم علينا ان لا ننسى جشع المنصور في الاحتفاظ بالبيعة لابنه المهدي وحرمان عيسى بن موسى منها ومن ولاية الكوفة . كل هذه الحوادث تحملنا على الاعتقاد بان الاخيضر بني للحرب والاقتتال وليس لحياة العزلة ، بناه رجل محارب قوي تابع للخلافة ، وليس رجلا مريضا (كعيسى بن موسى) الذي بلغت منه العلة كل مبلغ بعد المؤامرات والحيل التي كان يرسمها المنصور ضده .

« المترجم »

كن عالما ومتعلما ولا تكن جاهلا فتهلك

WWW.ATTAWEEL.COM